

كشف الحجاب البشري عن الوجه الإلهي

"الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا"

اليوم "ميلاد" وكلّ سنة يعود الميلاد، فكلّ عام وأنتم بخير! وكلّ عام نحاول أن نرفع عن الظهور الإلهي الحجاب البشري والتاريخي الذي رافقه. لقد ظهر يسوع لكن محتجباً. لأنّ "الكلمة صار جسداً"، وهكذا صار هذا الجسد حجاباً ضرورياً للحضرة الإلهية، ضرورياً ضرورة المحافظة على رغبة الإنسان وحرّيته في استقبال الكلمة وطاعتها، وذلك بترك جزء من الظهور الإلهي إلى محاولة الإنسان ذاته، المحاولة التي ستعبر عن إرادته في معاينة الكلمة الإلهية.

لقد صدف أن سألت مرّة شاباً: "أتطالع الإنجيل لكي تتعرّف على يسوع؟"، فأجابني بجرأة نعم، وأراني طريقة جميلة يعتمدها في مطالعته للإنجيل، إذ كان يخطّ سطراً تحت كلمات يسوع التي فاه هو بها ضمن النصوص الإنجيلية، لكونه أراد أن يقرأ كلمات يسوع ذاته في الإنجيل! رغم أنّ هذه المحاولة جميلة إلا أنّها لا تحيط بسرّ يسوع وكلمته التي جاءت في الأناجيل.

لم تكن كلمات يسوع التي فاه بها، والتي أشار ذلك الشاب إليها بسطور، لم تكن كثيرة بالنسبة إلى حجم النصوص الإنجيلية! إذن الإنجيل هو كلمات من؟ نعم الإنجيل ليس كلمات يسوع. يوجد فيه كلمات من يسوع ولكنّه بالأحرى روايات عن حياة يسوع. فكيف نقرأ الكلمة الإلهية في الإنجيل وهو بالنهاية بالأغلب "كلام البشر"!

نعم لم نستلم الكلمة الإلهية "منزلة"، لأنّها تأتي إلينا في أشكال عديدة، وأهمّ شكل لها هو حين "صار الكلمة جسداً"، أي حين جاءت كلمة الله في قالب بشري أيضاً وليس في قالب إلهي!

لقد سأل يسوع تلاميذه بعد ثلاث سنوات ملائمة بالتعاليم والعجائب "من يقول الناس إنّي أنا هو؟" وتعدّدت إجاباتهم، ولم يوجد إلا بطرس الذي صرخ "أنت المسيح ابن الله الحي"، فأجاب يسوع:

"طوبى لك يا بطرس لا لحم ولا دم كشف لك ذلك، لكن أبي الذي في السماوات (بالروح القدس)" (متى ١٦، ١٦-١٧). كان يسوع يدرك أن حجاب الجسد يفترض مؤمنين بدرجة عالية من اليقظة والإيمان لكي يقرأوا ما خلفه على حقيقته الكاملة، وهذا لا يحقّقه إنسان بمفرده، حاشى! إلا بنعمة الروح. لهذا أعلن يسوع "لا يأتي إلي أحدٌ إلا إذا جذبه الآب".

أكثر من تعثر بالوهيئة يسوع الإنسان كان إخوته، الذين وكما يقول الكتاب، لم يؤمنوا به في البداية. لقد تعثر به الكثيرون ممن هم الأقرب إليه!

وهذا ما حدث تماماً في العهد القديم، لم تكن الوصايا العشرة المرقومة على ألواح حجرية هي كلّ الكشف الإلهي. لقد قرأ الناس العهد مع الله وحرصه عليه، بالأغلب، من خلال الأحداث أكثر مما هو من خلال الكلمات أو النبوءات! كان اليهود في العهد القديم يعيشون أحداثاً عادية وحياتية يومية وقد تبدو تاريخهم القومي. لكن جماعة قليلة من المؤمنين وأهمهم الأنبياء، كانوا يقرأون من خلال ذلك كلمة من عند الله.

وهذه عشرة أغلبنا مع نصوص العهد القديم، التي قد نقبل منها بعض الوصايا والنبوءات وبعض الأحداث (كالكتاب التعليمي). ونرفض منها الأحداث الأخرى، لأنها تبدو لنا أحداثاً عادية لشعب محدد. إن الله يكشف ذاته وعهده ليس من خلال الكلمات والنبوءات والتعاليم فقط بل أيضاً يعلنها من خلال تدخّله وقيادته للتاريخ، ومن خلال أحداث حياة الناس. لم يكن الكشف الإلهي يوماً مطراً سماًوياً على أرض بشرية، بل كان نداءً اختلط مع ذهنيّات البشر، لأنّه بالتحديد جاء إليها ليبدّلها وليس ليلغيها أو يفرض ذاته عليها. لهذا فعلاً هناك خليط من العنصر الإلهي والعنصر البشري في تاريخ الكشف الإلهي، وأحياناً غلب هذا وأحياناً غلب ذلك. وهذه المسيرة المشتركة دوّنتها الكتب الإلهية. لذلك لا نستغرب أن نقرأ في العهد القديم روايات يطغى عليها فوضى الطابع البشري وليس الحبّ الإلهي. ولكن مع ذلك علينا رغم سوء المظهر البشري، أن نقرأ منها كلمة إلهية. ليس الكتاب المقدس كلّ كلمات الله ولا يروي كلّ أحداث تعاون الله والبشر، ولكن أيضاً يروي أحداث النكران البشري للحبّ الإلهي. يروي الكتاب قصّة الله مع البشر في وجهتي عملتها الواحدة، عهدها. لذلك علينا أن نرفع الحجاب التاريخي والبشري دوماً عن الكلمة الإلهية التي أهداها الله في التاريخ. ألا يجوي العهد الجديد أيضاً على أحداث قد تكون من المعيب أن تذكر في كتاب مقدس؟ إنّه وجه من الضعف البشري يبرهن الحاجة إلى

الالتصاق بالربّ ويوضح مقدار الحبّ الإلهيّ الذي لم يتوقّف عن الخيانات البشريّة. وحسبنا مثل يهوذا بين الاثني عشر!

هكذا حتى اليوم، يكشف يسوع ذاته بدءاً من نصوص الإنجيل، والنصوص كلّها في مقاطعها الرائعة مثل عجائبه وتعاليمه، وأيضاً المُعثرة منها مثل عداوة الكثيرين وتردد الآخرين. ويكشف يسوع ذاته بالإضافة لما تسلمناه من نصوص، في التقليد والتاريخ البشريّ بعد تجسّده، وذلك من ضمن "التاريخ"، أي جملة مسيرة الأحداث، التي قد تبدو لبني زمنها أنّها مجرد أحداث! ولكنّها تخفي وراءها كلمة إلهيّة علينا أن نقرأها دوماً، بغضّ النظر عن نوعيّة وأخلاقيّة الحدث ذاته بشرياً! إنّ الله لا يكشف ذاته إلا بتواضع عبر الظواهر والأحداث البشريّة. وهنا حكمة الإنسان الذي يستطيع أن يقرأ الكلمة في مظاهر إنسانيّة عاديّة. وهذا يحتاج كما قال يسوع لبطرس إلى الآب والروح.

لا نقرأ الكلمة الإلهيّة فقط من النصّ الإنجيليّ بل في الكنيسة، الكنيسة كمسيرة وحضرة في التاريخ. لا بل بكلمة أخرى نحن نكتشف الله بواسطة الكنيسة. إن الحجاب التاريخيّ والبشريّ هو هو من البدء إلى اليوم، والاكتشاف الإنسانيّ لله الظاهر هو هو حتى اليوم، سيقى محاولة حقيقيّة، لا تتمّ إلا بالطريقة الكنسيّة!

وما هي الطريقة الكنسيّة في قراءة كلمة الله؟ إن عمل الكنيسة بالتحديد هو تدريبنا على قراءة المشيئة الإلهيّة في التاريخ، تاريخنا. "لا تنتظرنّ كلمة إلهيّة تنزل - قهبط من السماء" إلينا. بل لنبحث في كلّ شيء عن كلمة الله، عمّا يريد يسوع ويبتغيه تجسّد المسيح، وذلك بواسطة العين الحكيمّة التي تملك مواهب الروح وعمق رؤية الإيمان. هذه العين هي الساهرة والطارهرة، وبكلمة أشدّ تعبيراً، إنّها العين الدامعة في الصلاة والمعاناة التي ترى وجه يسوع في عباته وابتساماته ضمن كلّ حدث من أحداث التاريخ وكلّ تفصيلا من الحياة.

صار الكلمة جسداً، وعلى الجسد أن يقرأ الكلمة الإلهيّة المحجوبة، بحريّة الروح وعين الإيمان، التي تقرأ في الكتاب والتاريخ كلمة الله وحدث تجسّد المسيح. سنقرأ كلمة الله بروح نبويّة في كلّ شيء.

آمين